(عبادة الصيام وأثرها في تزكية النفس)

الحمد لله الذي بلغنا مواسم الطاعات، وجعل الصيام جُنّةً من الشهوات، ومطهّرًا للقلوب من الآفات، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فأيها الإخوة الأحباب: ها نحن قد صرنا في اليوم العاشر من أيام هذا الشهر المبارك ولابد أن نكون حريصين فيه على تزكية نفوسنا وتزكية النفوس تعني تطهيرها وتنقيتها من الرذائل والذنوب والأخلاق الدنيئة وتنميتها بالأعمال الصالحة ومكارم الأخلاق. وحول هذا المعنى نعيش مع ثلاثة عناصر

الأول: التزكية ثمرة التدين.

الثاني: من لوازم الصيام الحق.

الثالث: الصيام يزكيك في الدنيا ويشفع لك في الآخرة.

جعل الله العبادات والفرائض ليست مجرد طقوس ظاهرية تؤدى، بل لها حكم وغايات، فالصدقات والزكوات على سبيل المثال: قال فيها سبحانه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة:103]، وتزكية النفس مقصد أساسي من مقاصد بعثة الرسل قال سبحانه عن نبينا محمد ﷺ ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: 2]

قال ابن القيم: « فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم»

ولذلك كان من مقاصد الصوم تزكية النفوس وتهذيبها وتنقيتها من الأخلاق الرذيلة، قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:183]؛ خاصَّة أنَّه شرع في شهر من خصوصيَّاته تصفيد الشياطين، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال:(إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنَّة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين) (البخاري ومسلم). حتى تتهيأ النفوس للتزكية ولا يحول بينها حائل.

عباد الله: من لوازم الصيام الحق أن يكون الصائم بكليَّته صائمًا عمَّا حرَّم الله في شهر رمضان وفي غيره من الشهور؛ فإنَّ رمضان هو المحطة السنوية للغسيل الروحي، وليس يعني ذلك أنَّ المسلم إذا صام عن المحرمات في رمضان، أنَّه يجوز له أن

يقترف ما حرَّم الله من المعاصي والموبقات في غير هذا الشهر؛ فليكن رمضان زادًا إيمانيًا لكل الشهور القادمة من بعده، ودورة تربوية يزداد فيها رصيد العمل الصالح، ويكثر فيه محاسبة النفس ومنعها من الحرام، وقد قال الله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾]النازعات:40-41.[

فليتحلَّ الصائم بكل جميل وليترك كل قبيح؛ فإنَّ رسول الهدى ﷺ . يقول:(من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه) أخرجه البخاري. ويقول:(فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل؛ فإن سابَّه أحد أو شاتمه فليقل: إني صائم) (البخاري ومسلم).

وقد ذكر الإمام ابن رجب ـ رحمه الله ـ أنَّ بعض السلف قال:(أهون الصيام ترك الشراب والطعام، وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء!!)

ومن لوازم الصيام أن يعمِّر الصائم ليله ونهاره بكتاب الله الذي أنزله الله في رمضان ،كان الأحنف بن قيس جالسًا يوما فجال بخاطره قوله تعالي :﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: 10] فقال: عليّ بالمصحف لألتمس ذكري حتى اعلم من أنا وما هي أعمالي؟ فمر بقوم :﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ *وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات/17-19]. ومر بقوم :﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: 134] ومر بقوم (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الحشر: 9]. فقال تواضعاً منه: اللهم لست أعرف نفسي في هؤلاء ثم أخذ يقرأ فمر بقوم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: 35]. ومر بقوم: يقال لهم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ *قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المدّثر 42-44] فقال: اللهم إني أبرأ إليك من هؤلاء حتى مر على قوم :﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: 102]. فقال: اللهم إني من هؤلاء. والمقصد من ذلك أن تتلمس حالك مع القرآن ومدى خشوعك وتدبرك لآي الذكر الحكيم.

ومن راعى تزكية الصيام ولوازمه استحق الشفاعة التي يختص بها الصائمون، فعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله قال: "الصيام والقرآن يشفعان للعَبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رَبِّ، مَنَعته الطعامَ والشهوات بالنهار، فشفِّعْني فيه، ويقول القرآن: منعته النومَ بالليل، فشَفِّعْني فيه"، قال: "فيشفعانِ". مسند الإمام أحمد بسند صحيح.

وهنا ندرك أدلة الإقناع، مما يعين على الاستجابة السريعة للشفاعة، فيقول الصيام: قد حرمته من ضروريات الحياة، وهي الطعام والشراب وكلاهما يحفظ النفس من الموت، ومن كماليات الحياة، وهي الحرمان من الشهوات والملذات، ومن منهيات الحياة ومحرماتها فلا يشهد الزور، ولا يقع منه اللغو ولا الغيبة والنميمة؛ لذلك جاءت آية استجابة الدعاء وقبول الشفاعة بين آيات الصيام قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } .البقرة 185.

وختامًا فكن حريصًا أيها الصائم على أن تتحلى بإشراقات الصيام وامتثال أخلاق الصائمين، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والتعب.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلني وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

كتبه الشيخ : أحمد يونس أحمد عبدالغني. موفد وزارة الأوقاف المصرية بالبرازيل.